رسالة الحاسد والمحسود

(للجاحظ)

منقولة عن نسخة بخط علي بن هلال الكاتب الشهير

(تابع ما قبله)

وكيف يصبر من استقر الحسد في قلبه على أمانيه ، وقد كان أخوة يوسف علماء حلماء ولدهم الانبياء فلم يغفلوا عما قدح في قلوبهم من الحسد ليوسف صلى الله عليه وسلم ، حتى أعطوا أباهم المواثيق المؤكدة ، والعهود المقلدة ، والايمان المغلظة ، أنهم له حافظون ، وهو شقيقهم وبضعة منهم ، فخانوا العهود ، ووثبوا عليه بالظلم فألقوه في غيابة الجب ، وجاؤا على قميصه بدم كذب ، فبظلمهم يوسف ظلموا أباهم طمعاً أن يخلو لهم وجه أبيهم ويتفردوا بحبه ، وظنوا أن الايام تسليه ، وحبه لهم عن بعده عنه يلهيه ، فأسالوا عبرته وأحرقوا قلبه . وكيف لا تقر عيون المحسودين بعد يوسف وقد ملكه الله خزائن الارض بصبره على أذى حساده ، ومتاعته ايام بالعفو والمكافأة وحسن العشرة والمؤاخاة ، بعد امكانه منهم لما أتوه مختارين ، ووفدوا عليه خائفين ، وهم له منكرون ، فأحسن وفدهم وأكرم قراهم فأقروا له لما عرفوا بالاذعان ، وسألوه بعد ذلك الغفران ، وخروا له سجداً لما قدموا عليه وفداً

فاذا أحسست — رحمك الله — من صديقك بالحسد فاقتل ما استطعت

من مخالطته ، فانه أعون الاشياء لك على مسالمته ، وحصن سرك منه تسلم من شذاة شره وعواتق ضره ، واياك والرغبة في مشاورته ، فتمكن نفسك من سهام مساورته ، ولا يغرنك خدع ملقه وبيان زلقه ، فان ذلك من حبائل ثقافه ، فان أحببت أن تعرف آية مصداقه فدس له من يهجنك عنده ويذمك بحضرته ، فانه سيظهر لك من تشييبه لك ما أنت به جاهل ، ومن خلاف المودة ما أنت منه غافل ، فهو ألج في حسده لك من الذباب وأسرع في تمزيقك من السيل الى الحدور ، وما أحب ان تكون عن حاسدك غبياً ، ولا عن فهمك بما في ضميره نسيا الا ان تكون للذل محتملا وعلى الدناءة مشتملا ولاخلاق الكرام مجانبا وعن محمود شيمهم ذاهباً أو تكون بك اليه حاجة قد صيرتك لسهام الرماة هدفا وعرضك لمن أرادك غرضا ولو نلت بذلك كنوز قارون لم يكن ذلك مما بذلت عوضا وقد قيل على وجه الدهر « الحرة تجوع ولا تأكل بثديبها » . وربما كان الحاسد المصطنع اليه بالمعروف اكفر له وأشد اجتهاداً وأكثر تصغيراً لذاك من أعدائه . وكان الحسن بن هانىء يرتع على مائدة اسماعيل الهاشمي وكان من المطعمين للطعام المسرفين فعارض الحسن بن هانىء يوما بعض أصحابه فقال له من أين ؟ فقال له من عند اسماعيل فقال له ما أطعمكم ؟ فقال اطعمنا دماغ كلب في قحف خنزير !! فلم يكن منه هذا القول الا على وجه الحسد ولم يسلم منه مع كثرة انسه به وكثرة سببه اليه حتى احتشد واحتفل في الذم له والتهجين لطعامه ولولا شدة ورع ابن سيرين وصدق لهجته لم يكن قوله فيما قال وأخبر عن نفسه من اطراح الحسد عن قلبه مرويا عنه وعند ذوي العقول معجبا حيث قال :

ماحسدت أحداً على شيء ان كان من اهل الجنة فاحسدي لرجل من أهل الجنة ؛ وان كان من أهل النار فما حسدي لمن يصير الى النار ؟

ومتى رأيت حاسداً يصوب لك رأيا وان كنت مصيبا ؟ أو يرشدك الى صواب وان كنت مخطئا ؟ أو نصح لك في غيبه عنك أو قصر في عيبه لك ؟ ؟ هو الكلب الكلِب والنمر الحرب والسم القشب والفحل القطم والسيل العرم ان ملك قتل وسبا وان ملك عصى وبغى حياتك موته وثبوره وموتك عرسه وسروره يصدق عليك كل شاهد زور ويكذب فيك كل عدل مرضي لا يحب من الناس الا من يبغضك ولا يبغض الا من يحبك . عدوك بطانته وصديقك علاوته وانك ربما غلطت في امره مما يظهر لك من بره ولو كنت تعرف الجليل من الرأي والدقيق من المعنى وكنت في مذاهبك فطنا نقابا ولم تكن في عيب من أوضح لك عيبه مرتابا لاستغنيت بالرمز عن الاشارة وبالاشارة عن الكلام وبالسر عن الجهر وبالخفض عن الرفع وبالاختصار عن التطويل وبالجمل عن التفصيل وأرحتنا من طلب التحصيل ولكن اخاف ان قلبك لصديقك غير مستقيم، كما ان ضمير قلبك غير سليم

انك غير سالم منه وان رفعت القذى عن لحيته ، وسويت عليه ثوبه فوق منكبه ، ولبست ثوب الاستكانة عند رؤيته ، واغتفرت له الزلة بعد زلته، واستحسنت كل ما يقبح من شيمه، وصدقته على كذبه، واعنته على فجرته فما هذا العناء ؟ وماهذا الداء العياء؟ كأنك لم تقرأ المعوذة ولم تسمع مخاطبة الله نبيه صلى الله عليه وسلم في التقدمة اليه بالاستعاذة من شر حاسد اذا حسد ؟ اتطلب ويحك ثأراً بعد عين ؟ او عطراً بعد عروس ؟ او

تريد ان تجني عنباً من شوك ؟ او تلتمس حلب لبن من حائل؟ انك اذاً لأعيا من باقل، وأحمق من الضبع، ان كنت تجهل بعد ما علمناك، وتعوج بعدما قومناك، وتبلد بعد ما ثقفناك، وتضل اذ هديناك، وتنسى لما ذكرناك، وتغبي عما فهمناك، وأنت كمن أضله الله على علم فبطلت عنده المواعظ، وعمي عن المنافع، فختم على قلبه وسمعه، وجعل على بصره غشاوة، ونعوذ بالله من الخذلان، انه لا يأتيك ولكنه يناديك، ولا يحاكمك ولكنه يوازنك، أحسن ما تكون عنده حالا أقل ما تزيد مالا، وأكثر ما تكون عيالا، وأعظم ما تكون ضلالا، وأفرح ما يكون بك أقرب ما يكون بالمصيبة عهداً وأبعد ما تكون من الناس حمداً فاذا كان الامر على هذا فمجاورة الاموات ومخالطة الزمنى والاجتنان بالجدران ومص المصران وأكل القردان — أهون من معاشر مثله والاتصال بحبله . والغل نتيج الحسد ورضيعه، وغصن من أغصانه وعون من أعوانه، وشعبة من شعبه، وفعل من أفعاله، وحدث من أحداثه ، كما أنه ليس فرع الا له أصل ولا مولود الا من مولد ، ولا نبات الا بأرض ، ولا رضيع الا له مرضع ، وان تغير اسمه فانه صفة من صفاته ونبت من نباته ونعت من نعوته، ورأيت الله جل ثناؤه ذكر الجنة في كتابه فخلاها بأحسن حلية وزينها بأحسن زينة، وجعلها دار أوليائه ومحل أنبيائه، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فذكر في كتابه ما منّ به عليهم من السرور والكرامة عند ما دخلوها وبوأها لهم فقال (إن المتقين في جنات وعيون ادخلوها بسلام آمنين* ونزعنا ما في صدورهم من غل اخوانا على سرر متقابلين* لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين)

فما أنزلهم دار كرامته الا بعد مانزع الغل من صدورهم فبافتقاد الغل والحسد تهنوا بالجنة وقابلوا اخوانهم على السرر وتلذذوا بالنظر في مقابلة الوجوه بسلامة صدورهم ونزع الغل والحسد من قلوبهم، ولولم ينزع ذلك من صدورهم ويخرجه من قلوبهم لافتقدوا لذاذة الجنة، ولتدابروا وتقاطعوا وتحاسدوا، وواقعوا الخطيئة ولمسهم فيها النصب واعقبوا فيها الخروج، لأنه عز وجل فضل بينهم في المنازع ورفع درجات بعضهم فوق بعض في الكرامات وسني العطيات، فلما نزع الغل والحسد ظن ادناهم منزلة فيها وأقربهم بدخول الجنة عهدا أنه أفضلهم منزلا وأكرمهم درجة وأوسعهم داراً بسلامة قلبه ونزع الغل من صدره، فقرت عينه وطاب أكله، ولو كان ذلك لصاروا الى التنغيص في النظر بالعيون والاهتمام بالقلوب ولحدثت فيهم العيون والذنوب، وماأري السلامة الا في قطع الحاسد ولا السرور الا في افتقاد وجهه، ولا الراحة الا في صرم مداراته، ولا الربح الا في ترك مصافاته، فاذا فعلت ذلك فكل هنيئا واشرب مريئا ونم رخيا وعش في السرور مليا، ونحن نسأل الله الجليل أن يصفي كدر قلوبنا ويجنبنا واياك دناءة الاخلاق، ويرزقنا واياك حسن الالفة والاتفاق. أحسن الله توفيقك والسلام